مع القومية والقومية العربية
وقفات ومراجعات

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ٢٠٢٤م

حقوق الطبع محفوظة

لمشاهدة وتحميل جميع كتب المؤلف

مع القومية والقومية العربية

وقفات ومراجعات

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

- إلى الشهامة في صورة من أجمل صورها.
- الى الانموذج الفذ في الوفاء والخلق النبيل.
- الى من كان المثل الرائع في قضاء حاجات الناس.
- الى صاحب (منتدى الموفقية) الذي جمع أكارم العلماء والأدباء والشعراء والأطباء وسائر المثقفين في بيته العامر في مدينة الموصل
- إلى أخي وعزيزي (موفق أحمد السبعاوي)
- اهدي له هذه الرسالة مع حبي واعتزازي

المؤلف

من هدي القران الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ سورة النساء.

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ سورة المجادلة/ ٢٢.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ سورة الحجرات.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة التوبة.

قال رسول الله ﷺ:

(مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ) رواه مسلم.

وقال:

(لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إلى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ) رواه أبو داؤد بإسناد حسن لغيره.

وقال:

(«لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهَّ مِنَ الجُعَلِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللهَّ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ) رواه الترمذي.

وقال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ الرَّبَ وَاحِدٌ، وإِنَّ الأبَ وَاحِدٌ، وَإِنَّ الدِّينَ وَاحِدٌ، وَلَيْسَتِ العَرَبِيَّةُ بِأحَدِكُمْ مِنْ أَبٍ وَلا أُمٍّ، وِإنَّمَا هِيَ اللِّسَانُ، فَمَنْ تَكَلَّمَ العَرَبِيَّة فَهُوَ عَرَبِيٌّ) رواه ابن عساكر بسنده عن الامام مالك.

مقدمة

الحمد لله حمدا يبلغني رضاه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد خير من اصطفاه، وعلى آله الطيبين، وصحبه المخلصين الصادقين، وعلى من دعا بدعوته إلى يوم الدين، ونعوذ بك اللهم أن تتطلع نفوسنا إلى من سواك.!

أما بعد:

فليس صواباً وليس من الأمانة العلمية، أن يعايش الأنسان أفكاراً ومناهج حياة يتبناها قسم من الناس، وهي تحمل في طياتها ما تحمل من دعوات حَرَصَ أصحابها ان ينشروها في مجتمعهم، معتقدين أنها المخلِّص لهم مما تعانيه الأمة من ضعف وهزال وشرٍّ وفساد، فقد تعصَّبوا لها كل التعصب متهمين مَن لم ينضمَّ تحت لوائهم، ويعمل معهم، بالسطحية في التفكير، أو الجبن والخوف والفزع والهلع وغير ذلك.. وزاد الاهتمام بها والدعوة إليها حين تبناها زعماء بيدهم السلطة يزينونها أمام الجمهور، بل يحملون الناس عليها حملاً.! وهناك مَن كان يضيَّق عليه في رزقه إن لم يسر على وفق ما يريدون.. هكذا عاشها الناس في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين في عدد من أقطار البلاد العربية.. إنها الدعوة إلى القومية بما تحتجنه من أحداث تركت بصماتها في الاتجاهات السياسية فظنوها على شيء، وما هي على شيء، وتجرعها الناس آلاماً مبرِّحة، وتركت ذكرياتها للأجيال القابلة، لعلها تأخذ الحذر من الدعوات التي يزوقها ويزخرفها حملتها ليغروا بها الناس فيما يستقبل من الزمان!.

وهذا الكتاب يتكون من مقدمة وأربعة مباحث:

المبحث الأول: في العصبية القبلية في المجتمع الجاهلي لصلته بالدعوات القومية.

المبحث الثاني: حزب الاتحاد والترقي ودوره في الدعوة إلى القومية الطورانية في نهاية الدولة العثمانية.

المبحث الثالث: الدعوة إلى القومية العربية، وهل هناك فارق بين العروبة والإسلام؟

المبحث الرابع: الدعوات القومية وحكمها في ضوء القران الكريم والسنة النبوية.

واللهَ أسأل أن يبصِّر من خُدع بتلك الدعوات القومية وبخاصة العلمانية منها ليعود إلى رشده، وأن لا تأخذه العزة بالإثم؛ فإن الرجوع إلى الحق فضيلة!! سائلاً من الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعَ به، وأدعو الله بما دعا به الإمام (ابن الجوزي):

(إلهي لا تعذب لساناً يخبرُ عنك، ولا عيناً تنظرُ إلى علومٍ تدلّ عليك، ولا يداً تكتبُ حديث رسولك، فبعزتك لا تدخلني النار)!.

اللهم امين.!!

كلام في القوميات

كل إنسان يحب قومه ويحب أمته.. إنها فطرة فطر الله الناس عليها، وهي حقيقة قائمة في النفس البشرية. وننظر إلى رسول الله محمد ﷺ وقد جاء بهذا الدين من عند الله رحمة للعالمين، فلم يقم بمحو هذه الفطرة ولم يعارضها. وحين نتأمل بالقران الكريم، نرى أن الله ﷻ خلق الشعوب والقبائل للتعاون لا للتحارب، قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ... ﴾ سورة الحجرات/ ١٣

فلم يقف الإسلام ضد الفطرة البشرية ولكنه وقف موقفاً حاسماً ضد أية قومية كانت؛ لأن الناس –كل الناس– في أصلِ خلقهم كان من ذكر وأنثى: أبوهم آدم وأمهم حواء، ومما يُنسب إلى أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ﷺ قوله:

الناس من جهة التمثال أكفاء أبوهمُ آدم والأم حواء
وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللأحساب آباء
فإن يكن لهُم من أصلهم شرف يفاخـرون به فالطينُ والماء

ثم تكاثر النسل منهما؛ فصاروا شعوباً وقبائل لا للتفاخر فيما بينهم، ولكن لتقديم خدمة لبني الإنسان بما تحمله من مبادئ سماوية تسعد الناس –كلهم– وتعيش في ظلال الأخوة متعاونين على الخير والبر والحياة السعيدة.!

العصبية القبلية في المجتمع الجاهلي
قبل البدء في الحديث عن القومية

رأيت من المفيد قبل البدء بهذه الوقفات والمراجعات في القومية والقومية العربية أن أذكر شيئاً مختصراً في التعصب القبلي في العصر الجاهلي؛ وذلك لوجود شيء من الصلة بين هذين المصطلحين.

القومية في اللغة والاصطلاح

تعريف القومية

القومية في اللغة: مصدر صناعي بإضافة ياء النسبة وتاء التأنيث إلى القوم والقوم: مصدر (قامَ) وقد غلب على الرجال دون النساء وقومُ كلِّ رجل: شيعته وعشيرته[1].

وعند التأمل بهذا المصطلح، نجد أنه مأخوذ من (القوم) فـ(القومية) إذن: (تعبير عن وجود جماعة من الناس يتكلمون لغة واحدة، وينحدرون -غالباً- من أصلٍ واحد: كالعرب والترك والفرس)[2].

وكثيراً ما يفضِّل من ينتمي إلى أمته امته على غيرها من الأمم.

القومية في الاصطلاح: أما في الاصطلاح، فإن دعاة الفكر القومي لم يتفقوا على تعريف واحد للقومية، حتى قال بعضهم:

(إنّ التعريف الجامع المانع للقومية يكاد يكون مستحيلا)[3].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٥، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤/ ١٢٤

(٢) جذور الفكر القومي العلماني تأليف الدكتور عدنان محمد زرزور ص ٤٣، الطبعة الثالثة. ١٤٢-١٩٩٩، المكتب الإسلامي بيروت.

(٣) جذور الفكر القومي والعلماني ص٤٣.

العصبية القبلية في المجتمع الجاهلي

كل من يدرس طبيعة الحياة في المجتمع الجاهلي، يتبين له أن العصبية الجاهلية كانت قد استحكمت وتمكنت فيه، فتشن الحروب بين القبائل وتُحصد أرواح الناس لأمورٍ هينة لا تستوجب ذلك، وليست بذات بال في كثير من الأحيان، وتمتد عدداً من الأيام أو الشهور، وقد تستغرق عدداً من السنوات كحرب البسوس بين بكرٍ وتغلب ابني وائل، التي دامت أربعين سنة، حتى قال المهلهل أخو كليب:

(فَكيفَ وَقد فنِيَ الحيَّانِ وثَكِلتِ الأمَهاتُ، وَيتِّم الأولَادُ، ونَائحةٌ لَا تزالُ تَصرُخُ في النَّواحي، ودمُوعٌ لَا تُرقأ، وأَجسَاد لَا تُدفن)[1].

وهكذا الأمر في حرب (داحس والغبراء)، وحرب (عبس وذبيان) التي دامت كل واحدة منهما السنين الطوال، وخلّد الشعراء ما خلدوا، وقالوا فيها ما قالوا، وقد قال الشاعر الجاهلي زهير بن ابي سلمى في معلقته المشهورة:

تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ[2]

فكانت هذه الحروب تأكل الأخضر واليابس، وتهلك الحرث والنسل.!

وننظر في أحوال ذلك المجتمع، فنجد كل فرد من أفراد القبيلة ينتصر لقبيلته من غير أن يسأل: أمظلومة قبيلته أم ظالمة. ويمثل هذه الحالة ما قاله شاعرهم:

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير ١/ ٤٨٤ تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى: دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) المعلقات السبع شرح الحسين بن أحمد الزوزني ص١٣٩، دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٣-٢٠٠٢.

إذا انا لم أنصر اخي وهو ظالم على القوم لم أنصر أخي وهو يظلم

وقال دريد بن الصمة:

وهل أنا الا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشدِ

وتمنى رجل من بني العنبر أن تكون قبيلة:

لا يَسألونَ أَخاهمْ حينَ يَندُبُهُم في النَّائباتِ على ما قال بُرهانَا

لكن يسيرون اشتاتا إذا فزعوا وينفرون إلى الغارات وحدانا[1]

ومن القواعد التي تعارف عليها ذلك المجتمع: (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً).

ولما كانت هذه العصبية مستأصلة في نفس كل فرد من أفراد القبائل تعمل عملها في ذلك المجتمع، فقد دافع عن رسول الله ﷺ بنو هاشم وبنو عبد المطلب ولم يسلموه للمشركين مع أن الكثرة الكاثرة منهم كانت على الكفر والشرك، ودخلوا في الشِعب ومعهم المسلمون عصبية منهم!.

ولم تكن تلك العصبية الجاهلية مقتصرة في الحروب -وحدها- بل كانت بمفاخرات القبائل بعضها مع بعض؛ ولّما كانت النبوة هي أعلى المراتب وهي اصطفاء من الله تعالى، فليس في قدرة قبيلة من القبائل أن تحصل على هذا الشرف – شرف النبوة- الذي أكرم الله به نبينا محمداً ﷺ، فجاء الحسد من تلك القبائل على هذا الشرف العظيم، فكان ذلك سبباً من أسباب صدّ الناس عن الانضواء تحت لواء الإسلام، ويدلنا على ذلك: ما كان من أمر

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ١/ ٢٨١ بتحقيق منذر محمد سعيد أبو شعر، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، المكتب الإسلامي، بيروت-عمان.

أبي جهل لمّا سأله الأخنس بن شريق عما سمعه من القرآن الذي كان رسول الله ﷺ يقرأ به في صلاة الليل أجاب أبو جهل قائلاً:

(ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الرُكب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منَّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه)[1].

ومن المفاخرات التي سرت في عرف ذلك المجتمع الجاهلي: (الهذليون والناطقون بلغتهم أكرم من بني طي وبنو عبد شمس أفضل من بني عبد الدار، وبنو مخزوم أحقُّ بالسيادة من بني تميم[2] (وكانت كل قبيلة تعرض مفاخرها ومآثرها أمام القبائل الأخرى لتُبيِّن مكانتها المرموقة بين القبائل. وهكذا الامر في (اليهود) أولئك الذين ايقنوا أن محمدا ﷺ رسول من الله، وقد عرفوا ذلك من صفاته في (التوراة) التي بأيديهم، وازدادوا يقينا برسالته لما جالسوه واستمعوا اليه وسألوه عن أمور كثيرة وأجابهم عنها، وتلك الأسئلة لا يعرف جوابها الا رسول من رب العالمين ومع ذلك فلم يؤمنوا بنبوته ورسالته بسبب الحسد الذي أعمى بصيرتهم، فقد كانت النبوة محصورة ببني إسرائيل فلمَّا أرسل الله محمد ﷺ من غيرهم وانتقلت النبوة منهم إلى غيرهم فلم يؤمنوا برسالته حقداً وحسداً عليه من عند أنفسهم.!

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام مع شرح ابي ذر الخشني ١/ ٣٩٠، حققه وخرج أحاديثه: همام عبد الرحيم سعيد ومحمد عبد الله أبو صعيليك، الطبعة الأولى ١٤٠٩ - ١٩٨٨ مكتبة المنار- الزرقاء الأردن.

(٢) العرب والإسلام للأستاذ ابي الحسن الندوي ص١٧.

حزب الاتحاد والترقي ودوره في الدعوة إلى القومية الطورانية في تركيا

فذلكة في الدولة العثمانية

تعدُّ الدولة العثمانية أكبر دولة من الدول الإسلامية مساحة، واستمرت سلطتها أكثر من ستة قرون، وتوالى على حكمها ستة وثلاثون سلطانا، واستطاعت أن تقوم بأعمال عظيمة يفخر بها كل مسلم فمحمد بن مراد الثاني أُطلق عليه اسم محمد الفاتح استطاع أن يفتح (القسطنطينية) عاصمة الدولة البيزنطية التي استعصى على المسلمين فتحها مدة ثمانية قرون وكان عمره –آنذاك– أربعاً وعشرين سنة، وكان هذا الفتح قد منح الأمل الباسم للمسلمين ليستعيدوا المجد الإسلامي الأول.

ويكفي الدولة العثمانية فخراً أنَّها كانت تحكم ثلاث قارات:

١– أوربا ٢– أسيا ٣– أفريقية، وصارت لها قوة عظيمة، حتى إن أوربا كانت ترتعد خوفاً وفرقاً من قوتها!. وإذا حدث أن دخل الأتراك بلدا من البلاد الأوربية، فإن الكنائس تمتنع عن دق أجراس نواقيسها احتراماً لهم. ويكفي أن نعلم أنّ محمد الفاتح لما انتقل إلى جوار ربه (أمر البابا أن يحتفل بعيد، وأن تقام صلوات الشكر مدة ثلاثة أيام لما أتاه نعي محمد الفاتح)[1].

لقد وقفت الدولة العثمانية بوجه أوربا، ومنعتها من الدخول إلى الشرق العربي، فكانت سببا في تأخير غزوها للشرق أربعة قرون، بيد أنَّ هذه القوة العظيمة تلاشت بعد قرون لّما دبّ في الدولة العثمانية ما دبَّ في الأمم السابقة من استبداد قسم من حكام الدولة وجورهم، وفشوِّ الحسد

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين تأليف: أبي الحسن علي الحسني الندوي ص١٦١، الطبعة الرابعة ١٤٣١–٢٠١٠، دار القلم – دمشق.

والبغضاء عند بعضهم، فوق الجمود العلمي والنفسي والصناعات... فإن ذلك وغيره أدى إلى ضَعف الدولة في أيامها الأخيرة.!

وانتهز سياسيو الغرب هذه الفرصة الذهبية في ضعف الدولة العثمانية، وقد علموا بوجود شباب قد تأثر بالمنهج الغربي والحياة الغربية فشجعوهم على الأخذ بمنهجهم فتشكل (حزب الاتحاد والترق) الذي دعا إلى (القومية الطورانية) وخير من يحدثنا في هذه القضية (أمير البيان شكيب أرسلان) رحمه الله فقال:

(.. وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية ... شعارهم: عدم التديّن، وإهمال الجامعة الإسلامية... نحن أتراك وقبلتنا طوران)[1].

وقد كان للمستشرقين أثر كبير في دعوة الأتراك إلى التمسك بقوميتهم القديمة.

ولم يكن المستشرقون -وحدهم- هم الذين قاموا بتشجيع الاتراك على هذه الدعوة الشوهاء النكراء الضالة المضلة، بل هناك (المنصِّرون) الذين كانوا يسمَّون بـ (المبشرين)، فقد صرَّح (زويمر) وهو كبير المنصِّرين في الشرق يقول: (إنّ أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام إيجاد القوميات)[2].

إنطلق (حزب الإتحاد والترقي) في عمله التخريبي بخطى وئيدة

---

(١) حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارد، تعليقات شكيب أرسلان ١/١٥٨-١٥٩، دار الفكر ١٩٧١، بيروت.

(٢) اقرأوا التاريخ تأليف الدكتور محمود ثابت أحمد علي ص ٢١٤، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ دار القمة.

للوصول إلى هدفه: وهو التحرر من المنهج الإسلامي الذي كانت تنتهجه الدولة العثمانية وتغييره بالنظام العلماني اللاديني. وإذا علمنا أنّ هذا الحزب كانت له مناصب مهمة في أواخر الدولة العثمانية، فقد صار هدم الدولة ميسراً لهم.

وقفة تأمل

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فمن المستحسن أن نذكر شيئاً عن نهاية الدولة العثمانية كيف كانت:

قامت الدولة العثمانية بحروب كثيرة أنهكت قواها، وخرجت من الحرب العالمية الثانية وقد أصابها الضعف، وكان للإنكليز الدور الكبير في الهيمنة عليها، وكان من رأي (مصطفى كمال اتاتورك) أن يخضع للضغوط، ويتعهد للإنكليز وحلفائهم بما يطمئنهم بأن استقلال تركيا لا يكون خطرا عليهم، فأرسل وزير خارجيته (عصمت اينونو) ليفاوض الإنكليز في أمر استقلال تركيا، وحدث اللقاء بين (كرزون) ووزير الخارجية في بريطانيا ومندوب تركيا (عصمت اينونو) في مؤتمر (لوزان) الذي انعقد في ٢٠-١١-١٩٢٢ لقد قال (كرزون) لمندوب تركيا بكل صراحة:

(إننا لا نستطيع أن ندعكم مستقلين؛ لأنكم تكونون -حينئذ- نواة يجتمع حولها المسلمون مرة أخرى فتعود المسألة الشرقية التي عانينا منها طويلا)[1].

وبعد مداولات كثيرة بين الجانبين أملى الإنكليز شروطهم المعروفة بـ

---

(١) الغزو الفكري للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ص١١٠، دار الأنصار، القاهرة .

(شروط كرزون) وهي:

١- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

٢- أن تلغى الخلافة.

٣- أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.

٤- أتخاذ تركيا لنفسها دستوراً مدنيا بديلاً من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية والقائم على قواعدها[١].

وقد نفذ (مصطفى كمال أتاتورك) هذه الشروط، بل تحمس في تطبيقها أكثر من تحمس الإنكليز أنفسهم. وبعد ذلك انسحب الحلفاء من تركيا. بيد أن هذا الانسحاب لاقى معارضة شديدة من نواب الإنكليز لما حضر (كرزون) وذكر لهم تلك الشروط... فأجابهم (كرزون): (لقد قضينا على تركيا التي لن تقوم لها قائمة بعد هذا اليوم؛ لأننا قضينا على قوتها المتمثلة في أمرين: الإسلام والخلافة، فصفق النواب الإنكليز كلهم وسكتت المعارضة)[٢].

كيف دخلت الدعوات القومية إلى بلاد المسلمين

لم تدخل الدعوات إلى القوميات من أصول مجتمعنا العربي الإسلامي، بل نشأت متأثرة بالدعوات القومية في أوربا أولا ثم منها إلى تركيا ثانياً، ومن تركيا إلى البلاد العربية بعد ذلك، وقد مرّت بمراحل، وكل مرحلة

---

(١) الغزو الفكري تأليف الدكتور عبد الستار فتح الله ص١١١.

(٢) علماء الغرب يقولون: (دمروا الإسلام أبيدوا أهله) تأليف: جلال العالم ص٤٩. وجلال العالم اسم مستعار واسمه الحقيقي: عبد الودود يوسف.

من مراحل دخولها إلى البلاد العربية والإسلامية لها أسبابها الخاصة، وسأقتصر الحديث في دخولها إلى تركيا أولاً، ثمَّ إلى البلاد العربية بعد ذلك.

تركيا والدعوات القومية

دام حكم الدولة العثمانية ستة قرون، وعاش الناس فيها على اختلاف قومياتهم متعاونين على الخير، وكان كل واحد منهم يشعر بحقيقة الأخوة التي تجمع بينهم: فإن ربهم واحد، وقرآنهم واحد، ونبيهم محمداً ﷺ هو قدوتهم وأسوتهم، فلم تعرف الدعوات القومية إلى حياتهم سبيلاً، لكن الذي حدث أنّ الدولة العثمانية في عمرها الأخير كانت تعاني من التأخر الحضاري، ومن الجهل، ومن الفساد الذي سرى في مرافق الدولة، وحدث أن قامت (الثورة الصناعية) في أوربا والدولة العثمانية تعاني ما تعاني من الضعف، وفتح الأتراك عيونهم على تلك الطفرة في الحضارة المادية والصناعات التي أخذت بعقول الناس فانبهر قسم منهم بما رأوه وما سمعوه، وبثّ في صفوف قسم من العثمانيين من الذين درسوا في دول الغرب أن أوربا لم تتطور وتصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد أن تركت دينها؛ وكانت هذه الثلة من الناس تنظر إلى أمتها بأنها مغلوبة، وأن اوربا هي الغالبة، ومن المعروف لدى علماء الاجتماع أن المغلوب يتشبه بالغالب ويقلده وقد نصَّ عالم الاجتماع (إبن خلدون) على ذلك في مقدمته فقال:

(لذلك نجد المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله)[1].

---

(١) المقدمة لابن خلدون ص ١٤٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

في هذه الأحوال التي كانت تعايشها الدولة العثمانية في عصرها الأخير تشكل (حزب الاتحاد والترقي) مكوناً -كما يقول أحد الكتاب- من اليهود المتمسلمين الذين ادعوا الإسلام وكانوا يعرفون من قبل باسم (يهود الدونما)، وكانوا قد هاجروا من بلاد الغرب واستوطنوا (البلقان)، وكان هؤلاء هم الذين قام على أكتافهم (حزب الإتحاد والترقي)، الذين تبنوا الدعوة إلى القومية الطورانية وهي قومية الأتراك قبل أن يدخلوا في الإسلام، وكان معبودهم (الذئب الأغبر)، وكان هذا الحزب يسير بخطى وئيده للوصول إلى هدفه: وهو التحرر من الحكم الإسلامي في الدولة العثمانية.!

ومما فعله هذا الحزب: قيامه بتتريك الدولة-أي جعلهم وظائف الدولة محصورة بالأتراك وحدهم دون غيرهم من العرب وأدى ذلك إلى حقد قسم من العرب بسبب ما أصابهم من الظلم.!

لقد شجع الغرب الدعوة إلى القومية في تركيا حتى وصل الأمر بـ (حزب الاتحاد والترقي) أن يرفع هذا الشعار (تركيا للأتراك) وصار الكماليون يقولون: (نريد أن نبني إسلاماً تركياً يصبح ملكاً لنا وجزءاً من مجتمعنا الجديد على نحو الكنيسة الانجليكانية التي هي مسيحية على نمط انجليزي)[1].

ولماذا حرص الغرب على تشجيع الدعوة إلى القومية في تركيا؟

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية تأليف: الدكتور محمد محمد حسين ص١٧٨، الطبعة التاسعة ١٤١٣-١٩٩٣، مطبعة المدني، القاهرة.

لقد كانت الدولة العثمانية: يحسب لها الغرب ألف حساب؛ إذ وقفت بوجه اوربا أربعة قرون ، وقد دخلت أعداد من الغربيين في الإسلام فدعا الغرب إلى القومية؛ ليدب الوهن والضعف أكثر في الدولة العثمانية، وعند ذاك تصبح لقمة سائغة.!

لقد اساء (حزب الاتحاد والترقي) ومن شايعه من الناس جهلاً منهم بخبايا الحزب وما يخبئه لهدم جوانب مهمة من حصون الإسلام وقلاع الايمان. فركض هؤلاء وراء أوربا مقلدين لها لا ليستقوا من مخترعاتها ومكتشفاتها العلمية، ولكن ليأخذوا منهاج حياتها في الشر دون الخير، وفي الفساد دون الإصلاح، وفي الضلال دون الهدى. وقد خسر العالم الإسلامي في ذلك خسارة كبرى فإن الدولة العثمانية مع ما كانت عليه من الضعف إلا أنها كانت موئلا للمسلمين في العالم الإسلامي تحتضنهم وتدافع عنهم.!

الدعوة إلى القومية العربية

تنويه

لا يظن أحد أني حين أكتب في (القومية العربية) أريد التقليل من شأن العرب ومكانتهم؛ لأن العرب هم مادة الإسلام، يعزُّ الإسلام بعزتهم، وقد عرفوا بصفات حميدة منها:

الصدق والأمانة والشجاعة والغيرة على الأعراض والكرم والوفاء بالعهد وغير ذلك. وهم أول من حمل رسالة الإسلام وقاموا بنشرها في أرجاء العالم.

ومن مكارم العرب: أن الله ﷻ أنزل (القران) بلغتهم دون لغات غيرهم من الأمم قال الله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ سورة يوسف

فلم يكن هدفي من الحديث في (القومية العربية) التقليلَ من شأن العرب، ولكني أردت أن أميط اللثام عن الذين نصّبوا أنفسهم للفصل بين الإسلام والعرب، وأرادوا أن تكون (القومية العربية) بديلاً عن الإسلام وأن تحل محله.!

تعريف القومية العربية

لم يتفق دعاة القومية العربية على تعريف جامع مانع لها فانقسمت فلسفة كلِّ حزب من أحزابهم على وفق نظرتهم للقومية، ونجد الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة قد عرفت القومية العربية فقالت:

(حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة واحدة لهم على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ وإحلالها

محل رابطة الدين..)[1].

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ١/ ٨٨٨، الندوة العلمية للشباب الإسلامي، إشراف مانع حماد الجهني، دار الندوة العلمية الطبعة الرابعة ١٤٢٠.

الدعوة إلى القومية العربية

بدأت الدعوة إلى القومية العربية، في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ بإنشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت في ظل رعاية أمريكية[١] ويعترف المؤرخون النصارى قبل غيرهم أن الدعوة إلى القومية العربية بدأت بالشام في أواخر الدولة العثمانية على يد عدد من نصارى الشام. وقد قرَّر ذلك المؤرخ المسيحي (فيليب حتي) فقال:

(.. ولقد كان ظهور مبادئ القومية العربية في العقد السابع من القرن الفائت على أيدي رجال الفكر السوريين –وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين– الذين تثقفوا في المدارس الأمريكية في بلادهم)[٢].

وقال:

(ومما لا ريب فيه أن القومية إنما هي صناعة غربية استوردها بما فيها الشرق العربي من أوربا)[٣].

ويقرر هذا (جورج انطونيوس) مضيفاً أن هذه الجمعية رأت من مصلحتها أن تضيف ناساً آخرين من طوائف أخرى، وأن يدخلوا معهم (الحركة الماسونية) فيقول:

(يرجع أول جهد حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥ م حين ألف خمسة شباب من الذين درسوا في الكلية البروستنتية في بيروت جمعية سرية وكانوا

---

(١) الحلول المستورة وكيف جنت على أمتنا تأليف الأستاذ يوسف القرضاوي ص١٤٧.
(٢) الغزو الفكري – التحدي والمواجهة تأليف الدكتور إسماعيل علي محمد ص٢٢٧.
(٣) تاريخ العرب تأليف فيليب حتي ص٢٥٦.

جميعاً نصارى، ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز اليهم، فاستطاعوا أن يضموا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصا ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية (وهي) الصفوة المختارة المستنيرة في البلاد، وكانت (الماسونية) قد دخلت سهل بلاد الشام على صورتها التي عرفتها اوربا؛ فاستطاع مؤسسو الجمعية عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم المحفل الماسوني -الذي كان قد أنشئ من عهد قريب- ويشركونهم في أعمالهم)[1].

ويقول (جورج انطونيوس) أيضا:

(.. وهذه الحركة القومية هي نتيجة من نتائج (البعثات التبشيرية الغربية التي يرجع وجودها في بلاد الشام إلى عهد إبراهيم باشا الذي أتاح للمدارس الفرنسية والأمريكية بالعمل اللتين قدّر لهما أن تحتضنها البعثة العربية وترعاه)[2].

أما (القس زويمر)، فقد كتب في إحدى تقاريره طريقة محاربة الإسلام، (إنَّ هدم الإسلام في نفوس المسلمين له أهمية كبرى في شيء واحد هو مثول الفكر الغربي كصديق دولي، وإن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام: هو إيجاد القوميات)[3].

---

(١) اقرأوا التاريخ ص٢١٤، نقلا عن كتاب يقظة العرب تأليف جورج انطونيوس ص٧١، طبعة دمشق سنة ١٩٤٦. ترجمة الدكتور ناصر الأسد، واحسان عباس.

(٢) يقظة العرب ص٩٧.

(٣) الغزو الفكري- التحدي والمواجهة للدكتور إسماعيل علي محمد ص ٢٢٧، نقلا عن معالم التاريخ المعاصر. تأليف أنور الجندي ص١٥.

وقال المؤرخ اليهودي (برنارد لويس)[1] في كتابه (نشوء تركيا الحديثة):

---

(١) برنارد لويس: مستشرق يهودي الأصل، بريطاني الجنسية، وحصل على الجنسية الأمريكية، وأقام في أمريكا. ولد سنة ١٩١٦، وتخرج من جامعتي (لندن) و (باريس)، نال درجة (الدكتوراه) سنة ١٩٣٩، وفي السنوات ١٩٤٠ و١٩٤٥ تفرغ لخدمة المخابرات البريطانية، ثم عاد للعمل في الجامعة، حتى عاد سنة ١٩٧٤. درس التاريخ الإسلامي في جامعتي (لندن) و كاليفورنيا) وبعد الحرب العالمية الثانية عكف على دراسة تاريخ الشرق الأوسط والعالم العربي وكتب كتبا ومقالات في مصلحة المشروع الصهيوني، وكتاباته فيها تهويل من خطر الإسلام على الغرب، ودعا صناع القرار لاتخاذ سياسات معاديةً للعرب والإسلام، وهو أكثر الناس تحمسا لتقسيم البلاد العربية الإسلامية على أسس دينية ومذهبية وعرقية، وكان المرجعية لـ (جورج بوش)، وكان له تأثير على الحكومات الأمريكية المتعاقبة منذ عهد (ريغان) إلى اليوم فيما يخص قضايا الشرق الأوسط الذي دعا إلى مصطلح الشرق الأوسط، ليكون محل مصطلح العالم العربي من أجل أن تدخل إسرائيل في هذا المصطلح، وكتب مقالا في صحيفته (الواشنطن بوست) بتاريخ ١٥-٥-٢٠٠٥ قال فيه: العراق دولة مصطنعة وليست حقيقية، واحتلاله سيكون فرصة لتصحيح هذا الخطأ الذي ارتكبه البريطانيون أي تفكيكه إلى دويلات بحسب الطبيعة السكانية وحسب الانتماءات الدينية والعرقية.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن الدولة العثمانية في عصرها الأخير تشكل فيها (المحفل الماسوني) وكان يحمل اسم (محفل الشرق العثماني) وكان مكونا من رؤساء اليهود وغيرهم، وقد دخل (قره صو) وهو من اغنياء اليهود الكبار على السلطان عبد الحميد الثاني، وكلمه في أمر الحصول على شيء من الإمتيازات في فلسطين، مقابل أن يعطوه خمسة ملايين ليرة ذهبية لخزينته الخاصة، ومائة مليون ليرة ذهبية قرضا إلى الدولة بدون فائدة! ولكن ما إن انتهى من كلامه حتى غلا الدم في عروق السلطان عبد الحميد وقال لـ (قره صو): أخرج من وجهي؛ فخرج وذهب إلى إيطاليا، وأبرق للسلطان البرقية الآتية: (.. ولكن هذا الرفض سيكلفك شخصيا ويكلف دولتك كثيرا).

وبعد مدة من الزمن جاءه (الحاخام موسى ليفي)، وصار يتودد له ويطلب منه أن يبيع=

(ولقد تعاون الإخوة الماسون واليهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبد الحميد) لأنه كان معارضا قويا لليهود؛ وذلك لأنه رفض بشدة إعطاء أي شبر من أرض فلسطين).

ويحدثنا الكاتب المسيحي المتعصب لمسيحيته حازم نسيبة عن بداية فكرة القومية العربية أنها بدأت لدى المسيحيين قبل المسلمين فيقول:

(بدأت فكرة القومية العربية في أوساط المثقفين المسيحيين قبل أن تبدأ عند المسلمين؛ إذ كان المسيحيون على صلة وثيقة بالثقافة الغربية، وأقرب إلى التأثر بتياراتها...)[1].

ولقد كان من دعاة القومية العربية (إبراهيم اليازجي) وهو رجل نصراني، دعا العرب إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، وتكوين دولة خاصة بالعرب، فكتب قصيدته التي كان لها صدى واسع عند دعاة القومية العربية ومنها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما السيل حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم وأنتم بين راحات الفنا سلُب

=جزءاً صغيراً من فلسطين لليهود مقابل أي ثمن يريد فما كان من السلطان عبد الحميد إلا أن قال له: (إنّ هذه الأراضي قد ملكها المسلمون بالدماء، ولا تباع إلا بنفس الثمن).

ولم ييأس اليهود من ذلك فصاروا يكيدون للدولة العثمانية في الليالي الليلاء، حتى حققوا ما يريدون بمساعدة الدول الغربية وبخاصة إنكلترا.!

(١) الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر تأليف: الدكتور علي عبد الحليم محمود ص ١٨٢/ الطبعة الأولى ١٣٩٩-١٩٧٩، دار ابن الأثير جامعة الموصب.

كم تظلمون وأنتم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب
الفتم الهون حتى صار عندكمُ طبعا وبعض طباع المرء مكتسبُ
وفارقتكم لطول الذل نخوتكم فليس يؤلمكم خسف ولا عطب

ومنها:

لتطلبن بحد السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبنا أرب
ونتركنّ علوج الترك تندب ما قد قدمتها أياديها وتنتحب
ومن يعش يرى والأيام مقبلة يلوح للمرء في أحداثها العجب

يتضح من هذا أن الدعاة إلى القومية الطورانية كانوا من اليهود، والدعاة الأول إلى القومية العربية كانوا من النصارى، وأرادوا استمالة المسلمين لهم فأدخلوا معهم عدداً من المسلمين ليكونوا عونا لهم في هذه الدعوة.

ماذا بعد الحرب العالمية الأولى؟

لما نشبت الحرب العالمية الأولى وأصاب الدولة العثمانية ما أصابها، صار المجال مفتوحاً أمام العالم الغربي ليعملوا على ان تنشق البلاد العربية عن الإمبراطورية العثمانية، والمعروف أنَّ العالم الغربي لا يريد خيراً لأمتنا، فانتهز هذه الفرصة، وصار يدعو ويشجع العرب على الدعوة للقومية العربية، وتحرك الحلفاء المنضوون إلى (الشريف حسين) في الحجاز وأهل الشام للإنضمام إلى الحلفاء بقيادة الإنكليز ومن جهل هؤلاء أن الإنكليز وغيرهم من العالم الغربي لا عهد لهم ولا ذمة؛ فهم لا يعملون إلا بما يحقق لهم مصلحتهم فقط فلما تشكلت الحكومة الهاشمية في سوريا ما كان من الإنكليز إلا أن نقضوا عهودهم مع من حالفهم من العرب، وهكذا تمت

الخديعة.! وكم ندم الشريف حسين على ما فعل لما التقاه أمين الحسيني مفتي فلسطين وأبو الحسن علي الحسني الندوي، لكن (لات ساعة مندم).!

ومهما يكن من أمر، فإن الدولة العثمانية على ما كان فيها من الضعف في كثير من مجالات الحياة، فقد كانت رمزاً للخلافة الإسلامية يلتف حولها المسلمون كثيراً من مجالات الحياة في كل مكان!.

الغرب والدعوات القومية

بذل الغرب جهوده الجهيدة في تشجيع الدعوات القومية في البلاد الإسلامية والبلاد العربية، وعمل أيضا على أن يرتبط المسلمون بقومياتهم القديمة قبل الإسلام: ففي (لبنان) كثرت فيها الدعوات إلى (الفينيقية)، مدّعين أن اللبنانيين لا صلة لهم بالعرب، بل صلتهم بحضارة البحر المتوسط.! وفي مصر نشطت الدعوة إلى الحضارة (الفرعونية) وانتشر اسم (رمسيس) و (أبو الهول)، وقد اتخذ (أبو الهول) شعاراً لمصر، وما إن بدأت مصر بالتحضير لإقامة (السد العالي) حتى قامت (اليونسكو) بضجة إعلامية لإنقاذ معبد (ابي سنبل) الفرعوني، ونقل تمثال (رمسيس) –فرعون مصر– إلى القاهرة، وصار شعار (مصر للمصريين) يرفع هناك من كبار الأدباء وأصحاب الأسماء اللامعة وسأكتفي هنا بذكر أديب وكاتب كانت له شهرته الواسعة في العالمين العربي والإسلامي، إنه الدكتور طه حسين الذي قال:

(الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين، وإن المصري مصري قبل كل شيء، والأكثرية الساحقة من المصريين لا تمتّ بصلة إلى الدم العربي، بل

تتصل مباشرة بالمصريين القدماء، وإن تاريخ مصر مستقل عن تاريخ أي بلد آخر)[1].

ولا نعجب بعد ذلك إذا علمنا أن مؤسسة مهمة من مؤسسات اليهود (مؤسسة روكفلر)تبرعت بـ عشرة ملايين دولار من أجل إنشاء متحف يعنى بالآثار الفرعونية، ومعهد لتخريج رجال الآثار[2].

(وفي العراق برزت الدعوة إلى القومية العربية والكردية والتركمانية وتعصب كل صاحب قومية لقوميته، وربما يكون هذا مستقبلاً سبباً من أسباب سلخ المنطقة الكردية من العراق لتكون إقليماً مستقلاً، ولا شكَّ أن هذا -كله- من أجل قطع صلة المسلمين بإسلامهم، وربطهم بعقائد وديانات جاهلية؛ ليتمكن الغرب من استعباد المسلمين)[3].

وهكذا تكون القوميات في أرجاء العالم الإسلامي خنجراً مسموماً يُطعن به المسلمون هنا وهناك، وهي عوامل هدم للنسيج الاجتماعي بالمجتمعات المسلمة، وهذا ما يريده العالم الغربي من تشجيعه لهذه الدعوات التي تمزّق أواصر المسلمين، وتسلمهم إلى الضعف والهوان بعد الهوان ليتمكنوا بذلك أن يصلوا إلى ما يصبون إليه من الهيمنة على الأمة المسلمة، ويا ليت قومي يعلمون.!

---

(١) إقرأوا التاريخ تأليف: محمود ثابت أحمد ص٢٣٣، نقلا عن مجلة الهلال/ ابريل لسنة١٩٣٩، دورية٦٤/ ١٨٦٢، دار الكتب المصرية.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية ص١٥٩.

(٣) عن كتابي الدعوات القومية.

العرب في الدولة العثمانية

ظل العرب والأتراك في ظل الدولة العثمانية مدة مديدة من الزمن إخوة متحابين متعاونين على الخير، ولم يشعر العرب بشيء من الغبن –آنذاك– فقد كانت عقيدة الإسلام وشريعته هي التي تجمعهم، ولم يثبت أن الدولة العثمانية عملت على تتريك العرب ولا تتريك غيرهم من الأجناس، ولم تبدأ نقمة قسم من العرب على الدولة العثمانية إلا في نهاية القرن التاسع عشر لما قام (حزب الاتحاد والترقي) بتبني الدعوة إلى القومية الطورانية، فقد حصلت إساءات كثيرة منهم إلى العرب: فحصروا الوظائف في الشعب التركي وحده دون العرب ودون غيرهم من الأجناس، وإذا علمنا أن عدد العرب –آنذاك– ليس بالقليل وقد حرموا من الوظائف فلا بد أن تؤدي هذه السياسة إلى حقد قسم من العرب إلى الدولة بسبب ذلك الغبن الذي أصابهم.!

ولا يظنّ أحد أن الكثرة الكاثرة من العرب وقفت بوجه الدولة العثمانية لا، فقد كان عددهم قليلاً ولم يريدوا إلا إصلاح الفساد في إدارة الدولة، ومساواة العرب بالترك، ومساواتهم بالترك في الحقوق والواجبات، والمطالبة بقسط أكبر من الحرية السياسية.

تشويه صورة الدولة العثمانية

ظل العالم الغربي يعمل على إضعاف الدولة العثمانية بأساليب كثيرة من أجل أن يدب الضعف والوهن في مفاصل الدولة، ومن ذلك زعمهم أن العداء كان مستحكما بين العرب والأتراك في بداية الدولة العثمانية، وتبين

لأولئك المستشرقين الذين حملوا تلك الأفكار الخاطئة أن الأمر ليس كما زعموا؛ فعاد بعضهم يصححون ما ذكروه عن الدولة العثمانية فقال الأستاذان (هرولدجب) و(هارولد بودن) في مقدمة كتاب (المجتمع الإسلامي والغرب):

(إن كثيرا من الآراء الشائعة فيما يتعلق بتاريخ تركيا ومصر في القرن الثامن عشر هي آراء خاطئة: آراء كنا نحن أيضاً نأخذ بها، لقد اضطرتنا الوثائق والمعطيات أن نبدل رأينا في هذا الأمر تبديلا تاماً..)[1].

لورنس العرب والقومية العربية[2]

في هذه الأحوال القاسية التي كان يعانيها العرب من الظلم توجه العالم الغربي الذي يحمل أحقاد الحروب الصليبية إلى العرب ليبثوا فيهم روح الدعوة إلى القومية العربية، فأرسل (لورنس) ليقوم بهذه المهمة –مهمة الدعوة إلى القومية العربية بصورتها العلمانية اللادينية، وهكذا كان فتم ذلك في غفلة من الزمن.

قال لورنس العرب:

---

(١) نشوء القومية العربية تأليف زين نور الدين زين ص٢١.

(٢) لورنيس العرب: هو (توماس إدوارد) من رجالات الاستخبارات البريطانية المقترن اسمه بأحداث تاريخ العرب الحديث ولد في (لابمأدوك) من قرى(وابلد) في إنكلترا، وتخرج في جامعة (أكسفورد)، وترك الخدمة العسكرية سنة ١٩٣٥، وبعد أيام كان يقود دراجته النارية وسقط في خندق فمات بعد ستة أيام، ودفن في مقبرة(موربنون) على أميال من مسكنه، اشهر آثاره: (أعمدة الحكمة السبعة) و(الثورة العربية). راجع كتاب الأعلام للزركلي ٥/ ٢٤٧.

(وأخذت في طول الطريق أفكر في سوريا وفي الحج وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني؟ وبمعنى أصح: هل تحل المثل العليا السياسية محل الوحي والإلهام؟، وتتبدل سوريا بمثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني؟ هذا ما كان يجول في خاطري طول الطريق)[1].

وقد يعجب القارئ إذا علم أن (لورنس) هذا كان عميلاً للمخابرات البريطانية والصهيونية معاً، وقد حمل لواء الدعوة إلى القومية العربية؛ لتكون بديلاً عن الإسلام، وسلمها إلى أولئك الذين تأثروا بالفكر الغربي و(بحزب الاتحاد والترقي)!.

التفسير القومي للتاريخ

هناك من دعا إلى التفسير القومي للتاريخ، وهذا التفسير ليس فيه شيء من الصواب، وهو واغل بالأخطاء إلى الأذقان، ويحمل في جوانحه ما يحمل من الإساءة إلى الإسلام؛ إذ يؤدي إلى أنّ الإسلام ليس بدين سماوي، بل هو دين قومي يرتبط بالقومية العربية أكثر مما يرتبط بالإسلام، وآيات القرآن الحكيم وأحاديث رسول الله ﷺ تبيّن خطأه؛ إذ كيف نفهم أن المسلمين من غير العرب هم أكثر من العرب في العالم الإسلامي؛ وربما كثير منهم كان تمسكهم بأحكام الشريعة الإسلامية أكثر من تمسك العرب بصورة عامة.

---

(١) أساليب الغزو الفكري في العالم الإسلامي تأليف: علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق ص٧٨، الطبعة الأولى ١٣٩٧-١٩٧٧، دار الاعتصام، القاهرة.

لو كانت رسالة الإسلام دعوة قومية لما انضم إلى دعوته أقوام من غير العرب.

لقد كانت الكثرة الكاثرة التي آذت رسول الله ﷺ واضطهدت صحابته وجمعت الجموع عليه للقضاء على دعوة الإسلام هم العرب الخُلّص.

وننظر إلى دعاة القومية فنراهم يربطون أمتهم بتاريخ ما قبل الإسلام ليهونوا من شأن هذا الدين. ونحن -المسلمين- نعتزّ بتاريخنا الإسلامي - وحده- فبه نفخر ونتفاخر، ورحم الله أخانا الأستاذ وليد الأعظمي فقد قال:

لا حمورابي ولا خوفو يعيد لنا مجداً بناه لنا بالعزّ قرآن
تاريخنا من رسول الله مبدؤه وما سواه فلا عزٌّ ولا شان
لولاه ظلّ أبو جهل يظللنا وتستبيح الدما (عبس) و (ذبيان)[1]

وفوق ذلك فإن التفسير القومي يتناقض تناقضاً واضحاً مع تاريخ الأمة العربية والإسلامية، فإن رسالة أمتنا جمعت العرب وغيرهم من الشعوب التي تحمل قوميات كثيرة، تختلف إحداها عن الأخرى، وقد اشتركت هذه الشعوب في الفتوحات الإسلامية، فلم يفكر أولئك الفاتحون بالقوميات. ويكفي أن نعلم أنّ أول جيش فتح الأندلس كان عدده سبعة آلاف مجاهد بقيادة (طارق بن زياد)، وكلهم من البربر، ولم يكن معهم من العرب سوى ثلاثين رجلا، جاءوا ليفقهوا الناس بأحكام الإسلام.

---

(١) ديوان وليد الأعظمي ص ٢٢٤، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤ دار القلم، دمشق.

وهكذا يكون التفسير القومي للتاريخ تفسيراً مضللاً يفصل بين العروبة والإسلام.

مع العروبة والإسلام

قد يسأل سائل: أهناك فرق بين العروبة والإسلام؟

أما دعاة القومية فيفصلون بينهما. ولم يكتفوا بذلك الفصل، بل أراد بعض دعاتها أن تكون العروبة بديلاً عن الإسلام. ولا أكون متجنياً على هؤلاء، فهم الذين صرحوا بذلك تصريحات لا تقبل الشك، وسنذكر نماذج فقط من تلك التصريحات فيما بعد.

وأما المنصفون من المؤرخين ومن المطلعين على أحكام الشريعة الإسلامية وسيرة رسول الله ﷺ فيقولون: إنّ ما ذهب إليه دعاة القومية العربية ليس بصحيح؛ إذ كل من يطلع على التاريخ الإسلامي منذ شروق شمس الإسلام على الوجود إلى قبيل نهاية الدولة العثمانية يتضح له ذلك: فقد ظلّ الناس في المجتمع الإسلامي لا يفرقون بين العروبة والإسلام.

ولقد كان غير المسلمين إذا قيل لهم: أنتم عرب يمتعضون من ذلك؛ لأنهم يعلمون أن لفظ العربي يعني المسلم، ولم يحدث الانفصال بين لفظتي عربي ومسلم إلا في نهاية الدولة العثمانية بما فعله (حزب الاتحاد والترقي)، ودخول قوات الاحتلال إلى بلاد المسلمين.

لقد كانت العروبة -ولا تزال كذلك- وعاءاً للإسلام؛ فإن العرب هم الذين حملوا لواء الإسلام وقاموا بنشره في أرجاء العالم، وإن القران الكريم كان له الفضل في حفظ اللغة العربية.

وقد عبّر عن هذه الصلة الوثيقة بين العروبة والإسلام الشاعر محمود غنيم فقال:

هي العروبة لفظٌ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه

إن الفصل بين العروبة والإسلام يحمل في طياته ما يحمل من الإساءة إلى الإسلام، فقد أراد دعاة الفصل بينهما أن تكون العروبة بديلاً عن الإسلام.

وهكذا يكون هذا الفصل محطة من محطات الغزو الفكري لتفريغ العروبة من الإسلام!.

ويعرب الاستاذ الإمام حسن البنا عن مكانة العرب في الإسلام فيقول:

(إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربياً، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم لاسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين.. وقد جاء في الأثر: إذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام، وقد تحقق هذا المعنى حين زال سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام وحرّاسه).

ويضيف الإمام البنا قائلاً:

(وأحب هنا أن ننبه إلى أنّ الإخوان المسلمين يعتبرون العربية كما عرّفها النبي ﷺ فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: (ألا إن العربية اللسان،

ألا إن العربية اللسان)[1].

الإسلام حفظ هوية الأمة

العروبة والإسلام شيئان متلازمان، فإن الإسلام هو الذي قام بحماية الوطن العربي خشية أن يصيبه من الكوارث والويلات، فهو الذي حفظه من الصليبيين الذين أقاموا لهم أربع امارات صليبية على ساحل الشام، وتصدى لهم صلاح الدين الأيوبي مَنَّ الله بأمثاله على المسلمين وهو رجل كردي[2] وليس بعربي فخلص بلاد العرب من أرجاسهم، وجاء بعده (قطز) و (الظاهر بيبرس) وهما ليسا من العرب، وتصديا للتتر الغزاة، وخلصا بلاد العرب من شرورهم. ولما احتل الفرنسيون الجزائر، وقد وصفها المحتلون بأنها فرنسا الجنوبية، فمن الذي حماها من ذلك الاستعمار الغاشم مدة مائة وثلاثين سنة أليس هو الإسلام والقرآن الذي لولاه لانمحت اللغة العربية من البلاد بعد تلك الحروب الطاحنة، وقد عقّب أنور الجندي على هذا فقال:

(ولا ريب أنه حيث يسقط الإسلام يسقط العرب، وأنَّ العربي بغير الإسلام لا شيء، فهو الذي شكلهم وأقامهم كأمة، وهو الذي رفع أعلامهم على مشارف القارات الثلاث)[3].

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس للإمام الشهيد حسن البنا ص ١٥، مؤسسة إقرأ، القاهرة

(٢) وأداءاً للأمانة أقول إن هناك من المؤرخين من ذهب إلى أنَّ صلاح الدين الأيوبي هو عربيّ وليس كردياً، بدليل نسبه الذي هو : يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب الدويني التكريتي. وصلاح الدين هو لقبه وليس اسمه.

(٣) معلمة الإسلام تأليف: أنور الجندي ص٢٢٣.

قادة أحزاب القومية العربية

حين ننظر إلى قادة أحزاب القومية العربية على اختلاف فكرهم وتوجهاتهم ومناهجهم نجد أنهم يدينون بغير دين الإسلام إنهم يدينون بالنصرانية، فهل نضبت العبقرية من المسلمين، فليس فيهم زعيم يقود هذا الحزب أو ذاك؟

لقد صار واضحاً أنّ الدعاة الأوائل لتلك الأحزاب –وأكثر جماهيرهم من المسلمين– يصرحون بأن دعوتهم علمانية لا صلة لها بالدين! وهذه أسماء قسم من زعماء وقادة الدعوات القومية:

١. ناصيف اليازجي
٢. إبراهيم اليازجي
٣. أديب إسحق
٤. بطرس البستاني

وغير هؤلاء كثير.

ومن قادة أحزاب القومية العربية:

٥. جورج حبش زعيم القوميين العرب.
٦. أنطوان سعادة زعيم القوميين السوريين.
٧. قسطنطين زريق أحد الزعماء القوميين.

موقف مؤسف

مما يبعث على الأسى والحزن أن الدعاة إلى القومية العربية صاروا يقفون موقف الضد من كل دعوة إلى الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي أو التقارب الإسلامي؛ بل يتضايقون حتى من الشعارات

الإسلامية. فهم يرون أن الدعوة إلى القومية العربية مقدمة على الدعوة إلى الإسلام. وهذا موقف نذكره هنا أداءاً للأمانة وللتاريخ:

حدثت في الموصل سنة ١٩٥٩ ثورة ضد حكم الزعيم عبد الكريم قاسم؛ إذ انتعش الشيوعيون في عهده وصار منهم من يصرح بكفره وإلحاده، وكان القائمون على هذه الثورة من الناس المسلمين الطيبين، لكنّ الثورة أخفقت. وبعد سنة أو أكثر بقليل تشكلت في الموصل هيئة لمحاربة الشيوعية، ولنترك الاستاذ غانم حمودات رحمه الله يتحدث لنا عن هذه الهيئة فيقول:

(لما اجتمعنا ــ نحن الهيئات المقاومة للشيوعية ــ وكان فينا البعثي والقومي وعضو حزب الاستقلال، ومعنا عالم ورجل آخر محام يجمع عروبة وإسلاماً. فقلت: يجب أَنْ نسمي تجمعنا إسلامياً؛ فانبرى أحد القوميين يعارض الفكرة ويقول: وماذا نفعل بغير المسلمين؟

فقلت: إننا بالإسلام يجتمع معنا إخواننا الأكراد، وينبغي أن يكون إخواننا معنا في معركتنا ضدَّ الشيوعية، فما وافقني أحد! فقلت: حَسَناً فلنسمِ تجمعنا تسمية تجمع العربي والإسلامي: فمن كان عربياً مسلماً يجد له نصيباً في هذه التسمية (عربي مسلم)، ومَنْ كان عربياً غير مسلم يجد له نصيباً في هذه التسمية وهم إخواننا العرب من غير المسلمين يجدون حصة لهم في هذه التسمية أيضاً، فلم يرضوا، فهم يجعلون الرابطة القومية فوق الرابطة الإسلامية، مع أنَّ الله ﷻ يقول: (إنما المؤمنون إخوة)، والرسول ﷺ يقول: «المسلم أخو المسلم».

وبعد أن انفضَّ اجتماعنا قلت للعالم لماذا سكتَّ؟ هل الإسلام إسلام

الإخوان المسلمين وحدَهم؟

وفي الاجتماع الثاني تكلَّم ذلك العالم، ولكنْ لم يلتفتْ إليه أَحد. فالذين يُقَدِّمون القومية على الإسلام إيمانهم في خطر)[1].

ساطع الحصري

يعد ساطع الحصري من أركان الدعوة إلى القومية العربية، وكانت له شهرته بعد الحرب العالمية الثانية حتى سمي بـ(فيلسوف القومية العربية)، وقد دعا إلى فصل العرب عن المسلمين. عمل وزيراً للمعارف في الدولة الإتحادية التركية بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني، عمل وزيراً للتربية في عهد الملك فيصل الأول في دمشق، ثم عمل وزيراً للمعارف في العراق في عهد الملك فيصل الأول أيضاً، وكان له أثره الكبير في وضع المناهج في الدولة العراقية، وكانت مناهج علمانية لا صلة لها بدين الإسلام، وكان يرى أن الإسلام دين لاهوتي، وأنه دين عبادة كما في المسيحية. ولنقرأ ما ذكره الاستاذ أنور الجندي عن الحصري قال:

(حدثني الدكتور مختار الوكيل مدير مكتب الجامعة العربية في جنيف، وهو رجل صادق مؤتمن، أنه في خلال عمله زار الأستاذ ساطع الحصري في سويسرا ورأى السيد عبد الفتاح حسن السفير المصري عند دعوته إلى طعام الغداء فلما قدم مع الدكتور الوكيل، حياه السفير المصري فقال:

مرحبًا بالمناضل الكبير في خدمة العربية والإسلام! وقد عجب

---

(١) غانم حمودات شيخ دعاة الموصل للمؤلف ص١٤٠-١٤١، الطبعة الثالثة ١٤٤٢-٢٠٢١، دار التفسير، اربيل، العراق.

الرجلان من ساطع الحصري الذي ردّ في عنف وحدة:

(عربي نعم، إسلام لا، أنا لا بيك أنا لا بيك!

وكلمة (لا بيك) تعني أن صاحبها علماني أو لا ديني)[1].

تصريحات اشتملت على مبالغات في القومية ومخالفات شرعية

أوغلت أعداد من كتّاب الدعاة إلى القومية العربية في تقديسهم للقومية، داعين أن تحلّ هذه الدعوة محل دين الإسلام. وتمادى منهم مَنْ تمادى في ضلاله حتى قال بعضهم: إنها نبوة هذا العصر. ومنهم من ذهب إلى أنّ المبدأ العربي دين يغارون عليه كما يغار المسلمون على قرآن نبيهم.. ومنهم من ذهب إلى أنّ العروبة دين وُجد قبل الإسلام وقبل المسيحية..!

وتوالت كتابات عدد من كُتّاب الدعاة إلى القومية العربية بهذه المعاني. وقد تكون دعواتهم هذه تنصلاً من الإسلام وإحلال الدعوة إلى القومية مكانه..!

أما الجماهير المسلمة التي اتبعتهم وسارت وراءهم، فهي جاهلة بما تنطوي عليها تلك الدعوات بحسن نيّة، ولو عرفوا الحقيقة لما اتبعتهم، بل لأعلنت عن ضلالاتها وما تحتجنه تلك الدعوات من شرٍ وفساد وضلال.

أمّا الكُتّاب المسلمون والدعاة إلى الله ممن سبر غور هذه الدعوات، فقد تحدثوا في فسادها وبعدها عن الدين الحق، بيد أن وسائل الإعلام في العالم العربي كانت لها القوة والصدارة، وبخاصة بعد أن تبنى الدعوة إلى القومية العربية حكام سَخّروا إعلامهم لقبول الناس لها، مدعين أنها هي التي تجمع

---

(١) معلمة الإسلام تأليف الأستاذ أنور الجندي ص٢٢٨.

الأمة العربية وتوحد بينها..!

وهكذا خُدع مَنْ خُدع بتلك الدعوات البرّاقة التي تحمل شعارات تأخذ بالألباب والقلوب.

وهذه أمثلة قليلة جداً مما كتبوه وصرّحوا به:

قال علي ناصر الدين:

(العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها – أي العروبة – إلى أسمى ما في الاديان السماوية من أخلاق ومعاملات، وفضائل وحسنات)[1].

وقال الأديب المشهور محمود تيمور:

(لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة... إن القوميّة العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي. ورسالة هذه النبوة في تجميع القوة وتكتيل الجبهة والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة. وإن كتّاب العرب في أعناقهم أمانة هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة: يزكونها بأقلامهم، وينفخون فيها من أرواحهم، ويعملون على أن تتكتل لها اسباب النماء والازدهار)[2]

وقال عمر الفاخوري في كتابه (كيف ينهض العرب؟):

---

(١) العرب والاسلام للأستاذ العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ص١١ منشورات المكتب الاسلامي

(٢) العرب والإسلام ص١١-١٢

لا ينهض العرب إِلَّا إذا أصبحت العربيّةُ أو المبدأ العربيّ ديانةً لهم، يغارون عليها كما يغارُ المسلمونَ على قرآنِ النَّبِيِّ الكريم والمسيحيّون الكاثوليك على إنجيل المسيح الرَّحِيم، والبروتستانت على تعاليم لوثر الاصلاحية وثوريو فرنسا في عهد الرعب على مبادئ روسو الديموقراطية ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك[1].

وهذه مجلة جيش الشعب التي يصدرها حزب البعث السوري فقد جاء فيها:

(إن الطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هو خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن بأن الله والأديان والإقطاع ورأس المال والاستعمار والمتخمين وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دُمَى محنطة في متاحف التاريخ)[2].

ويذكر الدكتور عبد العزيز الدوري قول واحد من مفكري الدعوة القومية هذا النص:

(نحن نريد بدراسة الجذور أن نميز بين العروبة والإسلام في وجهتنا... إن اعتزازنا بالتراث، وإعطاءنا القيم منزلتها لا يعني إتخاذ الإسلام رابطة سياسية أو إقامة الكيان على أساسه)[3].

وهكذا نرى من دعاة القومية من صرح بكفره، وفضل الدعوة إلى

---

(١) العرب والاسلام ص١٤

(٢) مجلة جيش الشعب السورية الصادرة في ٢٥/ ٤/ ١٩٦٧.

(٣) الجذور التاريخية للقومية العربية للدكتور عبد العزيز الدوري ص٨٥.

القومية العربية على الدعوة إلى الإسلام، فهم لا يؤمنون أن الإسلام نظام الله صالح للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان.!

اسئلة تدعو إلى الشك والريب

هناك أسئلة تدعو إلى الشك والريب في نشوء الدعوة إلى القومية العربية نضعها أمام القارئ الكريم، ومن خلالها يدرك أن وراء هذه الدعوة ما وراءها:

(لماذا تفجَّرت هذه الدعوة على يد المسيحيين العرب دون غيرهم؟

ولماذا انحصرت الحركة العربية وانتفاضاتها في الولايات التابعة للخلافة العثمانية ولم تمتد إلى الأجزاء الخاضعة للاستعمارين: الانجليزي والفرنسي؟

ولماذا احتضنت فرنسا المؤتمر العربي الأول في باريس سنة ١٩٣١؟

ولماذا أيدت بريطانيا الحركة القومية، وأنفقت على كثير من قادتها وزعمائها، وروجت صحفها ومقالات رجالاتها؟

ولماذا تنشأ بواكير الخلايا والمنظمات القومية في مؤسسات ثقافية وتبشيرية مشبوهة مثل: الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الامريكية) فيما بعد؟

ولماذا دعت بريطانيا وشجعت إنشاء الجامعة العربية ثم باركتها بعد تحقيقها؟

ولماذا اعتبر (ساطع الحصري) – منظر الفكر القومي الأكبر – اليهود أمة واحدة قوامها الدين، في حين رفض اعتبار الإسلام قوام الأمة العربية؟

وما معنى أن يكشف النقاب عن أن أستاذ الحصري كان صهيونياً متطرفاً؟

وما معنى أن يخطط للثورة العربية الكبرى (لورنس) الانجليزي، ودعوة أبو تايه اليهودي؟

وما معنى أن ينشر (ولي الدين يكن) – أحد رواد القومية – كتابه (المعلوم والمجهول)، ويصدره بصورة (اللورد كرومر) الحاكم الانجليزي في مصر ويكتب تحتها: (مصلح مصر)؟

وما معنى أن يكون قنصل فرنسا في (بيروت) عضواً في الحركة السرية للقوميين العرب؟)[1].

ألا تدعو هذه الأسئلة وغيرها إلى الشك والريب في نشوء الدعوة إلى القومية العربية، وأنها ما وجدت إلّا خدمة للمستعمرين في شرقنا العربي؟

لقد أراد دعاة القومية العربية أن تحل دعوتهم محل الرابطة الإسلامية، وبهذا تتحقق الخسارة الكبرى للمجتمعات الإسلامية. قال الدكتور جمال سلطان:

(والحركة القومية قد قامت أساساً لضرب الوحدة الإسلامية ورباطها الروحي والعقائدي القوي الذي كان يربط قلوب الملايين من الصين إلى مراكش، والذي كان عامل قلق كبير للوجود الاستعماري: فلقد كانت الانتفاضة تقع في الحجاز أو الشام تقض مضاجع الانجليز في الهند! ونعلم

---

(١) ينظر: الإسلام ومأزق الفكر القومي تأليف جمال سلطان في الصفحات ٢١-٢٣ الطبعة الأولى. ١٤١٠-١٩٨٩، دار الوفاء/ المنصورة- مصر.

جميعاً مبلغ الهزة التي أحدثتها في الدوائر الاستعمارية دعوة السلطان عبد الحميد (يا مسلمي العالم اتحدوا)، ولا يزال التاريخ الحديث يذكر لنا: أن الحاج أمين الحسيني – رحمه الله – عندما أعلن الجهاد المقدس في ثورة سنة ١٩٣٦، فرّت الكتائب الهندية في الجيش البريطاني العامل بفلسطين؛ لأنها: رفضت أن تقاتل إخوانها في الدين)[1].

وهكذا نجد أن الدعوة إلى القومية نشأت وترعرت منذ تأسيسها في أوربا، وقد أخذها (حزب الإتحاد والترقي) عنهم؛ وعنهم أخذ العرب الدعوة إلى القومية العربية، وعن العرب أخذها الأكراد وتعصبوا لها.

هكذا انطلت هذه المكيدة على قسم من المسلمين فصاروا دعاة لها.

وأداءاً للأمانة أقول: إن قسماً من العرب في أول ظهور الدعوة إلى القومية العربية كانوا ناساً مخلصين في دعوتهم هذه، فلم يريدوا سوى الحصول على حقوقهم المغتصبة، وكانت بعيدة عن العنصرية المقيتة.

---

(١) الإسلام ومازق الفكر القومي ص٢٣-٢٤.

الدعوات القومية وحكمها في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

القرآن والتعصب القومي القبلي

لمّا أرسل الله محمداً ﷺ رسولاً نبياً كانت العصبية القبلية قد تأصلت في نفوس ذلك المجتمع وسرت في عروقهم ودمائهم، فأراد الله ﷻ أن يستأصل هذه النزعة الجاهلية في قلوبهم ونفوسهم فأنزل آيات كريمات على رسوله محمد ﷺ تتلى آناء الليل وأطراف النهار مبينة أنّ الناس – كلهم – عربيهم وعجميهم خُلقوا من أب واحد وأم واحدة ثم تكاثروا وصاروا شعوباً وقبائل، فليس هناك فرق في أصل خلقتهم فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ سورة النساء/ ١

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ سورة الحجرات/ ١٣

وعلى هذا الأساس من أسس المساواة بين بني البشر قامت دعوة الإسلام التي أرسى قواعدها القرآن الحكيم، وطبّق مبادءها وأحكامها وشرح مضامينها رسول الله ﷺ، فكانت طفرة في التاريخ الإنساني لم يسبقها سابق ولم يلحقها لاحق.

هكذا خلق الله الناس ليتعارفوا فيما بينهم، وليس من أجل علّو بعض الأجناس على بعض، ولا من أجل تفضيل قومية على أخرى، وإذا كان هناك تمايز بين الأمم والشعوب فلا يكون إلا بما تحمله هذه الأمة أو تلك من الأخلاق العالية والسجايا الناصعة والأعمال الطيبة،

وكل مَنْ لا يؤمن بهذا ويتخذ طريق التعالي بالجنس أو اللون أو القوم أسلوباً له، ويعمل على تمزيق الناس وتشتتهم إنما يعمل عمل فرعون الذي قال الله ﷻ فيه:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ سورة القصص/ ٤

معالجة رسول الله ﷺ العصبية القبلية والتعصب القومي؟

إن طبيعة هذا الدين: العملُ على نشر الأخوة والمحبة والسماحة بين الناس أفراداً وجماعات ودولاً، وله موقفه الحاسم من التعصب القومي والقبلي والتعالي على الأقوام بعضها على بعض. ونجد طبيعة هذا الدين في القرآن الكريم وفي أحاديث رسول الله ﷺ، وهذه نماذج من تلك الأحاديث:

عن جندب بن عبد الله مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: (مَنْ قُتِلَ تحت راية عميّة، يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية)[1].

وعن جبير بن مطعم مرفوعاً: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ يَفتخِرُونَ بآبائِهِمْ الذين ماتُوا ، إنَّما هُمْ فحْمُ جهَنَّمَ، أوْ ليَكونُنَّ أهْونَ على اللهِ من الجُعْلِ الّذِي يُدَهْدِهُ الخَرَءَ بِأنْفِهِ، إنَّ اللهَ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب: الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن) رقم ١٨٥٠.
(٢) رواه ابو داؤد في كتاب الأدب (باب في العصبية) حديث ٥١٢١.

أذْهبَ عنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وفخْرَها بالآباءِ ، إنَّما هوَ مُؤمِنٌ تقِيٌّ، أوْ فاجِرٌ شقِيٌّ ، الناسُ كلُّهُمْ بَنو آدَمَ ، وآدَمُ خُلِقَ من التُّرابِ)[1].

وقال:

(لا فضل لعربيّ على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر إلّا بالتقوى)[2].

وقال:

(إسمعوا وأطيعوا ولو استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله)[3].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كُنَّا في غَزَاةٍ فكسع رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الأنْصَارِ، فَقالَ الأنْصَارِيُّ: يا لَلْأَنْصَارِ، وقالَ المُهَاجِرِيُّ: يا لَلْمُهَاجِرِينَ! فقال النبي ﷺ: دَعُوهَا فإنَّهَا مُنْتِنَةٌ)[4].

المؤاخاة ومعالجة التعصب القومي والقبلي

وحين نقرأ سيرة رسول الله ﷺ، نرى أنه آخى بين المسلمين مرتين: المرة الأولى في العهد المكي والثانية في العهد المدني، وكانت تلك المؤاخاة بين أفراد من عظماء الصحابة مع أفراد آخرين من الفقراء والمستضعفين سواء كانوا من العرب أو من غير العرب. فلم تكن تلك المؤاخاة قائمة

---

(١) رواه الترمذي ورواه أحمد والحاكم في المستدرك، صحيح الجامع ٥٣٥٨.

(٢) رواه الإمام احمد في تتمة مسند الانصار رقم ٢٣٤٨٩.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأحكام (باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية) رقم ٧١٤٢.

(٤) رواه البخاري ومسلم

على النسب أو الجنس أو اللون، وهي طفرة طفر فيها رسول الله ﷺ في تلك البيئة التي كانت العصبية الجاهلية قد استحكمت فيها، هذا فيما يتعلق بالمؤاخاة في مكة قبل الهجرة.

وأما فيما يتعلق بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فإن رسول الله ﷺ قد آخى بينهما بعد الهجرة ودعاهم إلى العدل والمواساة وأداء الحقوق، وإلى أن يتوارثوا فيما بينهم بعد الممات. وهكذا تكون الأخوة الإسلامية أكثر قوة من القرابة والرحم. وفي تلك المؤاخاة: صار حمزة بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ أخاً لزيد بن حارثة، وصار عبد الرحمن بن عوف أخاً لسعد بن الربيع... وظلَّت مسألة حقوق الوراثة بين المسلمين مقدمة على حقوق القرابة والرحم إلى أن حدثت (غزوة بدر الكبرى)، ونزل قول الله ﷻ ﴿ **وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ** ﴾ سورة الانفال/ ٧٥ فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من ميراث المؤاخاة، ورجع ميراث كل مسلم إلى نسبه ورحمه.!

طبيعة المجتمع الإسلامي

وهكذا نجد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه قضى سنوات بعثته إلى أن انتقل إلى جوار ربه وهو يعمل على إزالة العصبيات الجاهلية القائمة على الجنس والدم واللون، وطبّق ذلك تطبيقاً عملياً حين آخى بين رجال ليست بينهم رابطة من روابط الدم والوطن واللغة واللون، ونص على أنّ المسلمين لا يتساوون بالحقوق والواجبات – وحدها – بل بالأخوة الإسلامية فقال:

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً)[1].

وقال:

(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد: إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[2].

لقد كان في المجتمع الإسلامي (سلمان الفارسي) ﷺ الذي سئل عن نسبه فقال: (أنا ابن الإسلام).

وقال فيه رسول الله ﷺ: (سلمان منا أهل البيت)[3].

وفي المجتمع الإسلامي (بلال بن رباح) الحبشي ﷺ الذي كانت له منزلة كبيرة في المجتمع الإسلامي منذ أن آمن بالله إلى أن انتقل إلى جوار ربه.

وكان في المجتمع الإسلامي (سالم مولى أبي حذيفة) ﷺ الذي قال فيه عمر بن الخطاب ﷺ:

(لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته).

وفي المجتمع الإسلامي (زيد بن حارثة) ﷺ مولى رسول الله ﷺ وقد زوجه الرسول الكريم ﷺ من ابنة عمته (زينب بن جحش) رضي الله عنها الحسيبة النسيبة من أعلى القبائل العربية نسباً. أمّره رسول الله

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم) حديث ٢٥٨٦.

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣/ ٦٦١ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.

ﷺ على جيش عزوة مؤتة. وفي المجتمع الإسلامي (أسامة بن زيد)رضي الله عنه وقد أمّره رسول الله على جيش فيه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة عامر بن الجراح وغيرهم، وكان عمر بن الخطاب إذا لقي أسامة بن زيد حياه بهذه التحية: مرحباً بالأمير؛ مشيراً إلى أنه كان جندياً بجيش أسامة بن زيد.

ولاء المسلم لمن يكون؟

الولاء: هو الحب والقرب، والولي: هو القريب، وأصل الإيمان: هو الحب في الله. ولا يكون الولاء إلّا لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو أصل من أصول الإسلام ومظهر من مظاهر حب الله وحبّ رسوله وحب المؤمنين.

نصّ القرآن الحكيم على أنّ رابطة العقيدة الإسلامية هي أقوى من كل الروابط لا تعدلها أية رابطة أخرى مهما كانت: فلا يكون ولاء المسلم للأهل ولا للقبيلة ولا للجنس ولا للنسب ولا للمصاهرة إن استحب هؤلاء الكفر على الإيمان. والمسلم يقرأ في القرآن الكريم (سورة المسد) وقد نزلت في أبي لهب عم رسول الله ﷺ وهو في الذؤابة من قريش لمّا جاهر بعدائه لرسول الله ﷺ ولدعوة الإسلام فلم ينفعه نسبه. وتظل الخيبة والخسارة تلاحقه إلى يوم القيامة: ﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣**﴾ سورة المسد.

وتتوالى نصوص القرآن مبينة أن الولاء يكون لله ولرسوله

وللمؤمنين قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ سورة المائدة.

وقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة التوبة.

وقال:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ سورة المجادلة/ ٢٢.

وقال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة التوبة.

فإن قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ فيه إشارة إلى رابطة الجنس والنسب، وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ فيه إشارة إلى المصاهرة، وفي قوله تعالى: ﴿ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ إشارة إلى رابطة

القومية والقبيلة، وفي قوله: ﴿ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ إشارة إلى المصالح الاقتصادية، وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ إشارة إلى رابطة الأرض والوطنية، وفي قوله: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ إشارة إلى رابطة العقيدة التي يجب على المسلم أن يكون ولاؤه لها لا لسواها، فاذا انساق إلى أية رابطة أخرى غيرها، فيصير قد نأى عن المنهج الذي يجب عليه أن يسير على وفقه.

يتضح من هذه الآيات الكريمات وغيرها أنّ المسلم يتحول ولاؤه من تلك الولاءات المتعددة إلى الولاء الخالص لله ولرسوله وللمؤمنين. وكان خير من دعا إلى ما دعا إليه القرآن الكريم هو رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.

فهذا عبادة بن الصامت ﷺ كان حليفاً لبني قينقاع وكان رسول الله ﷺ حالفها لمّا هاجر هجرته المباركة إلى المدينة المنورة، فلما نقضت هذه القبيلة عهدها مع رسول الله ﷺ جاء عبادة إلى النبي الكريم وقام بخلع تلك القبيلة، وتبرّأ إلى الله ورسوله من حلفهم وقال:

(يا رسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حِلف هؤلاء الكفار)[1].

وهذا سعد بن معاذ ﷺ كان حليفاً لبني قريظة، لكنّ هذه القبيلة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٩، تحقيق: السقار والأبياري وشلبي، الطبعة الثانية ١٣٧٥-١٩٥٥، طبعة: مصطفى البابي الحلبي.

ارتكبت الجريمة الكبرى: فقد نقضت عهدها مع رسول الله ﷺ في وقت هو قمة في الحراجة حين أتت أعداد من القبائل العربية يقودهم كفار مكة يريدون غزو المدينة، لاستئصال المسلمين. ولما ردهم الله تعالى وعادوا مخذولين ناكسي رؤوسهم حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة، وكان سعد بن معاذ حليفاً لهم، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه لأنه كان حليفاً لهم، ظانين أنه يرأف بهم، وقبل الرسول الكريم ﷺ أن يحكم فيهم سعد، وجاء سعد فكان حكمه: (أَنْ تُقْتَلَ الرِّجَالُ، وَتُقَسَّم الْأَمْوَالُ، وَتُسْبَى ذراريهم وَالنِّسَاءُ)[1].

وهكذا يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.!

مكانة غير العرب في المجتمع الإسلامي

ظلت رابطة الأخوة بين المسلمين قائمة لا يكدرها مكدر مدة ثلاثة عشر قرناً، وكيف يكدرها مكدر وعوامل اللقاء بين المسلمين كثيرة كثيرة: فهم يحملون عقيدة واحدة، هي عقيدة توحيد الله ﷻ ويؤمنون بنبوة محمد ﷺ وفي أركان الإيمان الأخرى، ويقومون بالعبادات وغير ذلك كثير. فالإسلام هو الذي جمع الشعوب الإسلامية قبل أن تهب الريح الصفراء على العراق والبلاد العربية الأخرى. وكمثال على ذلك أن الإمام الشافعي وهو من أرومة عربية، وقد أخذ بمذهبه الأكراد وكثير من الشعوب الإسلامية من غير العرب.

أما الإمام أبو حنيفة وهو من أصل فارسي، ولكنّ الكثرة الكاثرة من

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٠، تحقيق السقا وجماعته.

العراقيين وأكثرهم من العرب يتمذهبون بمذهبه.

أما حملة الرسالة الإسلامية فأكثرهم من غير العرب، وقد نصّ العلامة (ابن خلدون) على ذلك فقال:

(من الغريب الواقع أنّ حملة العلم في الملّة الإسلاميّة أكثرهم العجم لا من العلوم الشّرعيّة ولا من العلوم العقليّة إلّا في القليل النّادر)[1].

وكمثال على ذلك : أن حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ كان عدد غير قليل من تلامذته الذين تلقوا عنه أحكام الشريعة الإسلامية هم من غير العرب ومن أبرزهم:

١. عكرمة بن عبد الله البربري أبو مجاهد ويكنى بأبي عبد الله أيضاً. سمع من جابر بن عبد الله وأنس بن مالك، وسمع منه: أيوب السختياني وسعيد بن جبير، توفي سنة ١٠٤هـ.

٢. طاووس بن كيسان اليماني، محدث وفقيه ويعد من كبار التابعين، سمع من زيد بن ثابت وعائشة وغيرهما، وهو من كبار أصحاب ابن عباس، توفي سنة ١٠٦هـ.

٣. مكحول بن أبي مسلم شهراب، فقيه الشام في وقته، ومن حفاظ الحديث، سمع علياً بن أبي طالب وابن عمر وأبا هريرة، وسمع منه الحسن البصري والزهري، توفي سنة ١١٢هـ.

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ١/ ٧٤٧، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: الأستاذ خليل شحادة، الطبعة الأولى ١٤٠١-١٩٨١، دار الفكر بيروت.

٤. مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي، تابعي، مفسر، أخذ التفسير عن ابن عباس، وسمع من جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك وغيرهم، وسمع منه: شعبة بن الحجاج، والثوري توفي سنة ١٠٤هـ.

وهذا مثال من أمثلة كثيرة يدل على أن غير العرب كانت لهم مكانة مرموقة في المجتمع، وقد نبغ كثير منهم في الفقه وغيره من العلوم:

قال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى – وكان شديد العصبية للعرب –:

من كان فقيه البصرة؟

قلت: الحسن البصري بن أبي الحسن، قال: ثم مَنْ؟

قلت: محمد بن سيرين، قال: فما هما؟

قلت: مولیان.!!

قال: فمن فقيه اليمن؟

قلت: عطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار.

قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالٍ!!.

قال: فمن فقهاء المدينة؟

قلت: زيد بن أسلم، ومحمد بن المنكدر، ونافع بن نجيح.

قال: فما هؤلاء؟

قلت: موالٍ.!!

فتغيّر وجهه ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟

قلت: ربيعة الرأي، وابن ابي الزناد.

قال: فما كانا؟

قلت: من الموالي!!

فانتفخت أوداجه وانتصب قاعداً وقال:

فمن فقيه خراسان؟

قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني.

قال: فما عطاء هذا؟

قلت: مولى!!

فازداد وجهه تربداً، وأسود اسوداداً حتى خفته.

ثم قال: فمن فقيه الشام؟

قلت: مكحول.

قال: فما مكحول هذا؟

قلت: مولى.

قال: فمن كان فقيه الكوفة؟

ولولا خفته لقلت الحسن بن عتبة، وعمار بن أبي سلمان، ولكن رأيت في نفسه الشرّ

فقلت: إبراهيم النخعي والشعبي.

قال: فما كانا؟

قلت: عربيان.

فقال: الله أكبر وسكن جأشه[1].

---

(١) القومية في ميزان الإسلام تأليف: عبد الله ناصح علوان ص ٧٠-٧٢. الطبعة الخامسة ١٤٢٢-٢٠٠٢ دار السلام، القاهرة.

هكذا تبّوأ غير العرب المكانة العالية في ظل دولة الإسلام، وكان من أشراف العرب من يأتي إليهم ليدرس عليهم ويأخذ عنهم ولا يجد غضاضة من هذا، وكان غير العرب أيضاً ينالون حقوقهم كاملة في الدولة الإسلامية.

أما عيسى بن موسى هذا، فلا يمثل ما كان عليه المجتمع الإسلامي، بل كان شاذاً فيه، والشاذ لا يقاس عليه ولا يعد شيئاً أمام الكثرة الكاثرة التي تحمل خلاف رأيه.

لا نكفر أحداً أقرّ بالشهادتين

ولا بدّ لي أن أشير هنا إلى أن العامة من دعاة القومية العربية في العصر الحديث هم ناس مسلمون لا نتهمهم على دينهم، فهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويؤمنون أيضاً بأركان الإيمان وأركان الإسلام وكثير منهم يؤدي الصلاة في أوقاتها ويصوم شهر رمضان المبارك، كلهم خدعوا بالألفاظ الرنانة، والشعارات الطنانة والعبارات التي تأخذ بمجامع القلوب في توحيد الأمة العربية كلها فوق الأماني المعسولة التي تأخذ بالألباب، فلا نكّفر أحداً من هؤلاء إلّا من أنكر معلوماً من الدين بالضرورة أو جاهر بالكفر.

خاتمة[1]

جاء الإسلام إلى هذه البشرية بتصور جديد لحقيقة الروابط والوشائج، يوم جاءها بتصور جديد لحقيقة القيم والاعتبارات، ولحقيقة الجهة التي تتلقى منها هذه القيم وهذه الاعتبارات.

جاء الإسلام ليرد الإنسان إلى ربه، وليجعل هذه السلطة هي السلطة الوحيدة التي يتلقى منها موازينه وقيمه، كما تلقى منها وجوده وحياته، والتي يرجع إليها بروابطه ووشائجه. كما أنه من إرادتها صدر وإليها يعود.

جاء ليقرر: أن هناك وشيجة واحدة تربط الناس في الله فإذا انبتَّت هذه الوشيجة فلا صلة ولا مودة: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ سورة المجادلة/ ٢٢.

وأن هناك حزباً واحداً لله لا يتعدد، وأحزاباً أخرى كلها للشيطان وللطاغوت: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ سورة النساء.

وأن هناك طريقاً واحداً يصل إلى الله وكل طريق آخر لا يؤدي إليه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

---

(١) مقتطفات من كتاب معالم في الطريق بحث (جنسية المسلم عقيدته) تأليف سيد قطب، ١٨٣-١٩٥، الطبعة الأولى ١٣٨٤-١٩٦٤، مكتبة وهبة، القاهرة.

سَبِيلِهِۦ ﴾ سورة الأنعام/ ١٥١.

وأن هناك نظاماً واحداً هو النظام الإسلامي وما عداه من النظم فهو جاهلية: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ سورة المائدة.

وأن هناك شريعة واحدة هي شريعة الله وما عداها فهو هوى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ سورة الجاثية.

وأن هناك حقاً واحداً لا يتعدد، وما عداه فهو الضلال: ﴿ ...فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.سورة يونس.

بهذه النصاعة الكاملة وبهذا الجزم القاطع جاء الإسلام: جاء ليرفع الإنسان، ويخلصه من وشائج الأرض والطين، ومن وشائج اللحم والدم -وهي من وشائج الارض والطين-.

ليست قرابة المسلم أباه وأمه وأخاه وزوجه وعشيرته ما لم تنعقد الآصرة الاولى في الخالق فتتصل من ثم بالرحم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ سورة النساء/ ١

ولا يمنع هذا من مصاحبة الوالدين بالمعروف مع اختلاف العقيدة ما لم يقفا في الصف المعادي للجبهة المسلمة. فعندئذ لا صلة ولا مصاحبة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي يعطينا المثل في جلاء:

روى ابن جرير بسنده عن ابن زياد قال دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن

عبد الله بن أبيّ قال: ألا ترى ما يقول أبوك؟ قال: ما يقول أبي؟ -بأبي أنت وأمي- قال: يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.! فقال: فقد صدق والله يا رسول الله، أنت -والله- الأعز وهو الأذل. أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبرّ بوالده مني، ولئن كان يُرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به!. فقال رسول الله ﷺ: لا. فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبيّ على بابها بالسيف لأبيه، فقال: أنت القائل: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)؟ أما والله لتعرفَنَّ العزة لك أو لرسول الله ﷺ؟ والله لا يأويك ظلها ولا تَأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله!. فقال: يا للخزرج، إبني يمنعني بيتي، إبني يمنعني بيتي! فقال: والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه. فاجتمع إليه رجال فكلَّموه، فقال: والله لا يدخلنّ إلا بإذن من الله ورسوله!

فأتوا النبي ﷺ فأخبروه، فقال: اذهبوا إليه، فقولوا له: خلِّه ومَسْكنَه، فأَتوه، فقال: أما إذ جاء أمر النبي ﷺ فنعم.!

فإذا انعقدت آصرة العقيدة فالمؤمنون كلهم إخوة ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر.. ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ على سبيل القصر والتوكيد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ... ﴾ سورة الأنفال/ ٧٢.

وهي ولاية تتجاوز الجيل الواحد إلى الأجيال المتعاقبة، وتربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها برباط الحب والمودة والولاء والتعاطف المكين.

وحين انبتَّت وشيجة القرابة بين محمد ﷺ وبين عمه أبي لهب، وابن عمه عمرو بن هشام (أبو جهل) وحين قاتل المهاجرون أهلهم وأقرباءهم وقتلوهم يوم بدر.. حينئذ اتصلت وشيجة العقيدة بين المهاجرين والأنصار، فإذا هم أهل وإخوة، واتصلت الوشيجة بين المسلمين العرب وإخوانهم: صهيب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي ﷺ.

وتوارت عصبية القبيلة، وعصبية الجنس، وعصبية الأرض. وقال لهم رسول الله ﷺ: (دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنتِنَةٌ). وقال لهم: (لَيسَ مِنَّا مَن دَعَا إلى عَصَبِيَّةٍ وَلَيسَ مِنَّا مَن قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيسَ مِنَّا مَن مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ).

فانتهى أمر هذا النتن، نتن عصبية النسب وماتت هذه النعرة نعرة الجنس، واختفت تلك اللوثة لوثة القوم، واستروح البشر أرج الآفاق العليا بعيداً عن نتن اللحم والدم ولوثة الطين والارض.

وكذلك حارب محمد ﷺ مكة وهي مسقط رأسه وفيها عشيرته وأهله وفيها داره ودور أصحابه وأموالهم التي تركوها فلم تصبح دار إسلام له ولأمته إلّا حين دانت للإسلام وطبقت فيها شريعته.

إن عصبية العشيرة والقبيلة والقوم والجنس واللون والأرض عصبية صغيرة متخلفة.. عصبية جاهلية عرفتها البشرية في فترات انحطاطها الروحي، وسماها رسول الله ﷺ: (مُنتِنَةٌ) بهذا الوصف الذي يفوح منه التقزز والاشمئزاز.

المحتوى

المحتوى

من هدي القران الكريم ٧
من هدي السنة النبوية ٨
مقدمة ٩
كلام في القوميات ١١
العصبية القبلية في المجتمع الجاهلي ١٢
قبل البدء في الحديث عن القومية ١٢
القومية في اللغة والاصطلاح ١٢
تعريف القومية ١٢
العصبية القبلية في المجتمع الجاهلي ١٣
حزب الاتحاد والترقي ودوره في الدعوة إلى القومية الطورانية في تركيا. ١٩
فذلكة في الدولة العثمانية ٢١
وقفة تأمل ٢٣
كيف دخلت الدعوات القومية إلى بلاد المسلمين ٢٤
تركيا والدعوات القومية ٢٥
الدعوة إلى القومية العربية ٢٩
تنويه ٣١
تعريف القومية العربية..... ٣١
الدعوة إلى القومية العربية ٣٣
ماذا بعد الحرب العالمية الأولى؟..... ٣٧
الغرب والدعوات القومية..... ٣٨
العرب في الدولة العثمانية ٤٠

تشويه صورة الدولة العثمانية ٤٠
لورنس العرب والقومية العربية ٤١
التفسير القومي للتاريخ ٤٢
مع العروبة والإسلام ٤٤
الإسلام حفظ هوية الأمة ٤٦
قادة أحزاب القومية العربية ٤٧
موقف مؤسف ٤٧
ساطع الحصري ٤٩
تصريحات اشتملت على مبالغات في القومية ومخالفات شرعية ٥٠
اسئلة تدعو إلى الشك والريب ٥٣
الدعوات القومية وحكمها في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية..... ٥٧
القرآن والتعصب القومي القبلي ٥٩
معالجة رسول الله ﷺ العصبية القبلية والتعصب القومي؟ ٦٠
المؤاخاة ومعالجة التعصب القومي والقبلي ٦١
طبيعة المجتمع الإسلامي ٦٢
ولاء المسلم لمن يكون؟ ٦٤
مكانة غير العرب في المجتمع الإسلامي ٦٧
لا نكفر أحداً أقرّ بالشهادتين ٧١
خاتمة..... ٧٢
المحتوى..... ٧٩
صدر للمؤلف..... ٨١

صدر للمؤلف

١. العقيدة الإسلامية الطبعة الثامنة.
٢. إيماننا الحق بين النظر والدليل الطبعة الثانية.
٣. مباحث في أصول التشريع الإسلامي الطبعة الثانية.
٤. أصول التشريع الدستوري في الإسلام الطبعة الثالثة.
٥. الواضح في مصطلح الحديث الطبعة الثانية.
٦. السنة النبوية في مواجهة التحديات الطبعة الثالثة.
٧. الإسناد الصحيح المتصل من خصائص الأمة الإسلامية الطبعة الأولى.
٨. في صحبة الخلفاء الراشدين الطبعة الثانية.
٩. ستة مبشرون بالجنة الطبعة الثانية.
١٠. من روائع القصص في تضحيات الصحابة الطبعة الثالثة.
١١. ما ينبغي أن يعرفه المسلم عن الصحابة الطبعة الثانية.
١٢. صور من صحابة رسول الله في القرآن والسنة
١٣. شعراء رسول الله ﷺ. الطبعة الأولى
١٤. علوم القرآن الطبعة الرابعة.
١٥. تأملات في آيات القرآن الطبعة الأولى.
١٦. تفسير آيات الحجاب الطبعة الثالثة.
١٧. مع القرآن الكريم - تفسير وبيان - الطبعة الأولى.
١٨. السنن الكونية واستعلاء الإيمان الطبعة الأولى.
١٩. لغة القرآن الطبعة الثالثة.
٢٠. أمُّ الخبائث الطبعة الأولى.
٢١. العلاج النفسي في القرآن الكريم الطبعة الأولى.

٢٢. دراسات قرآنية الطبعة الأولى.
٢٣. رضينا بالإسلام دينا الطبعة الأولى.
٢٤. صرخة المنابر الطبعة الأولى.
٢٥. كلمات من القلب الطبعة الأولى.
٢٦. قضايا المرأة في مواجهة التحديات الطبعة الأولى.
٢٧. الجهاد في التصور الإسلامي الطبعة الأولى.
٢٨. العمل والعمال في الفكر الإسلامي الطبعة الثانية.
٢٩. روائع إسلامية ١ ـ ٢ الطبعة الثانية.
٣٠. روائع وطرائف ١ ـ ٤ الطبعة الأولى.
٣١. باقات الورود النضرة من حكايات المسلمين العطرة الطبعة الثالثة.
٣٢. قطوفٌ دانيةٌ من مآثر المسلمين وظلام الغرب الطبعة الثانية.
٣٣. محاضرات إسلامية وابحاثٌ ثقافية الطبعة الأولى.
٣٤. فقه الداعية.
٣٥. المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري الطبعة الثانية.
٣٦. الذكر والدعاء في القرآن والسنة الطبعة الثالثة.
٣٧. رقائق إيمانية في تزكية النفس وتقويم السلوك الطبعة الأولى.
٣٨. رسالة المسجد الطبعة الأولى.
٣٩. الإسلام في إفريقيا الوسطى الطبعة الثالثة.
٤٠. الوسطية في التصور الإسلامي الطبعة الثالثة.
٤١. أخلاقنا أو الدمار الطبعة الثانية.
٤٢. من أعلام الصحابة الطبعة الأولى.
٤٣. لِمن تحطم الأخلاق الطبعة الأولى.

٤٤. خصوم الإسلام والصحوة الإسلامية المعاصرة الطبعة الأولى.
٤٥. التوسل والوسيلة الطبعة الأولى.
٤٦. الأصولية الإسلامية وظلام الغرب الطبعة الثانية.
٤٧. الأعراض عن منهج الله وأثره في حياة المسلم الطبعة الأولى.
٤٨. الإسلام والرق الطبعة الأولى.
٤٩. الحج ليس وثنيةً الطبعة الأولى.
٥٠. الإسلام وقصة العامية الطبعة الأولى.
٥١. المنافقون في القرآن الكريم الطبعة الأولى.
٥٢. آدم عليه السلام - خلقه ومعصيته - الطبعة الأولى.
٥٣. صحابة رسول الله الطبعة الثانية.
٥٤. الدعوات القومية الطبعة الأولى.
٥٥. نحو الدستور الإسلامي الطبعة الأولى.
٥٦. شريعتنا والحياة الطبعة الأولى.
٥٧. منهج الدعاة الطبعة الأولى.
٥٨. الغلو في التكفير الطبعة الثانية.
٥٩. الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم الطبعة الأولى.
٦٠. لمحات من المباديء الإقتصادية في الفكر الإسلامي الطبعة الثانية.
٦١. التعامل الربوي وكيف عالجه الإسلام الطبعة الأولى.
٦٢. مشروعية العمل الجماعي الطبعة الأولى.
٦٣. سيرة صحابة دفنوا في أرض العراق الطبعة الثانية.
٦٤. نفحات من شريعة الإسلام وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان.
٦٥. من روائع الشعر في الحكم وتهذيب النفوس الطبعة الثانية.

٦٦. صور من سماحة الإسلام مع غير المسلمين الطبعة الأولى.
٦٧. مصطلحاتٌ ومفاهيم ينبغي أن تصحح الطبعة الأولى.
٦٨. غانم حمودات شيخ دعاة الموصل الطبعة الثالثة.
٦٩. الإسلام وتعدد الزوجات الطبعة الثالثة.
٧٠. صحابة أنزل الله فيهم قرآناً الطبعة الأولى.
٧١. تحقيق كتاب إعتقاد أهل السنة والجماعة للشيخ عدي بن مسافر الأموي الشامي المتوفى سنة ٥٥٧ للهجرة بالإشتراك مع الشيخ محمد علي الياس العدواني الطبعة الأولى.
٧٢. تحقيق أصول الفقه الإسلامي للشيخ رشيد الخطيب الموصلي الطبعة الأولى.
٧٣. السلسلة الذهبية للبراعم الإسلامية في السيرة النبوية ١ ــ ٢ بالإشتراك الطبعة الثانية.
٧٤. اليقظة الإسلامية للشيخ بشير الصقال، جمع وتحقيق الطبعة الأولى.
٧٥. ديوان الصقال للشيخ بشير الصقال جمع وتحقيق الطبعة الأولى.
٧٦. مؤامرات في مواجهة الإسلام.
٧٧. أهل البيت في عقيدة أهل السنة والجماعة.
٧٨. نظرات في الصوم.
٧٩. رسالة الى ورثة الأنبياء.